بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمَّدًا عبده ورسوله.

أما بعد: فاعلم أرشدني الله وإيَّاك لمعرفة الحق والعمل به أنَّ الشيء إنَّما يَعْظُم قَدْرُه بسليم كُنْهه وماهيَته، وعميم خيره ونفعه وعظيم أثره، كذلك -بالمقابل المضادّ- يعظُم جُرْمُه بفساد ماهيته وتضرُّر العباد بضرره وأثره، فالضَّررُ يُزَال وذرائعه تُسَدُّ، وإنَّ من أعظم مبادئ الشَّريعة الغرَّاء وأكرم مقاصدها السَّمحاء القائمة على المحجَّة البيضاء: **جلب المصالح ودرء المفاسد**، فقعَّدَت لذلك قواعد دقيقة وقرَّرت وسائل وثيقة، وكم من مَفْسَدة ظنَّها النَّاسُ هَيِّنَةً وكانت المفاسد منها ناشئة وفيها مجتمعة، ظاهرها مُغْرٍ وباطنها مُضِرٌّ مُؤْذٍ، ومن أجل صيانة العباد من الأضرار وحمايتهم من الأخطار، أمر الشارع الحكيم بترك كلِّ ما غلبت عليه شوائب الفساد وشَوَّهَتْهُ دخائن أدْرَان الكساد، فلا يُؤْخَذُ الشَّيء إلَّا إذا تمحَّضَ حَسَنُه وتمحَّصَ في مَعينه وتمخَّضَ به في مَنَاهله، فإذا عَلِمْنا كَوْنَ العلم نورًا وهدًى وسبيل العباد إلى السَّعادة في الدُّنيا والآخرة، والاستقامة على الجادَّة السنّية وسلّم الارتقاء والسناء، ومنافعه كثيرة من غير احصاء ومقاصده شريفة وعزيزة بلا مراء، وحملته علماء حلماء، ومبلّغوه حكماء نزهاء، ومن أجل صيانته من العبث والتَّحريف قَيَّض الله له حفظَةً عُدُولًا أُمَنَاء، يَنْفُون عنه تحريف الغُلَاة ودعاوى وتخريف الجُهَّلاء، ويكشفون عن خزايا المتعالمين والدُّخلاء، قال ابن حزم رحمه الله: «لا آفة على العلوم وأهلها أضرّ من الدخلاء فيها وهم من غير أهلها، فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون ويفسدون ويقدّرون أنهم يصلحون».

فالعلم ميراث الأنبياء تركوه أمانة في كَنَف العلماء -وليس غير العلماء- فكانوا عن حياضه ذَابِّين ولما لا يمُتُّ له بصلة رادِّين، ولمن تجاسَر وغامر في رحابه من المتعالمين مُحَذِّرين، وله مُنذرين من سوء العاقبة يوم الدِّين وشدَّة عقوبة ربِّ العالمين، إنَّ في ذلك لذكرى للنَّاس أجمعين فضلا عن المتعلّمين.

وإنَّ للتَّعالُم أضرارًا وخيمة ومفاسد جسيمة ممتدَّة آثارُها فكانت بشتَّى الفنون والعلوم مُلمَّة وعميمة، وهو سوء خلَّة وذميمة، فقد طال التَّعالمُ النُّقولَ تحريفًا وانتحالًا، وتلفيقًا وكذا نال العقولَ تصْريفًا وتخريفًا، فصال في العالَم

مُغَرِّبًا ومُشَرِّقًا فيغترُّ النَّاس بما تكتسيه كلماته تزيينا وتنميقا، فترى العاميَّ إذا سمع المتعالمَ يَجيش بتعالمه الكذَّاب، ويُبَوِّؤُه منزلةَ ذوي الألباب، وهو منه محلُّ إعجاب، وأنّه حامل فقه السُّنَّة والكتاب، وأهلٌ للحديث والفُتْيَا في كلِّ باب، وأثره خطير على الفكر والكتاب قال قتادة رحمه الله: «من حدَّثَ قبل حينه افْتَضَحَ في حينه».

وذلك بكشف الأجلَّة عن حقيقته وهتك باطله وما ينطوي عليه من خسف وإفك ومسلك مرد فجٍّ، تبْيَانا لنزع الثِّقة منه والتَّحذير من الاغترار به، وهذا واجبُ أهْلِ الإسْلام أمام كلِّ متعالم يدَّعي العلم وليس بعالم، أخْذًا بحُجَزِهم عن النَّار، وتبصيرا لهم بوضع الأقدام، ودفعًا لسيْل تعالمهم الجرَّار، كِفاحًا عن بيضة الإسلام وصرْحه المُمَرَّد من كلِّ مُتَمرِّد، صيانةً لذَويه عن التَّذبذُب والانفصام، والتَّبدُّد والانقِسَام، بسيرُورة التَّعالم بين العباد وهذا عين الحكمة والسَّداد، وصِدقِ النُّصح والرَّشاد، وحُسْن توجيه السَّواد، ودفع عنهم كل ما يفسد عليهم صلاحهم وسعادتهم في الدُّنيا والآخرة، فكما يحجرُ على الطَّبيب المتعالم لصالح الأبْدَان، فإنَّ من باب أولى وأحرى أنْ يُحْجَرَ على العالِم والمُفْتي المُتعالم من الفُتْيَا والتَّوجيه لصالح الدِّيانة، إذ الأبدان في خدمة الأدْيان، قال ﷺ: «من تَطبَّب ولم يُعْلَم منه طبٌّ فهو ضامنٌ» [السلسة الصحيحة رقم: ٦٤٥] ، وقال في الثاني سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾[الإسراء: ٣٦]، ففي هذين النَّصَّين الوحيين زواجر وقوارع لخوارم المتعالمين المتلاعبين بكتاب ربِّ العالمين والمستهترين بسنَّة سيِّد المُرْسَلين، والمدَلِّسين على عوامِّ المُسْلمين، ألا يخافُ هؤلاء يوم يبعثهم الله يومَ الدِّين ويسألهم أجمعين، عمَّا قالُوه وكانوا له عاملين،

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق: ٣٧] .

ولا يخفى على الأريب أن التَّعالم ذريعة وعتبة الولوج في مجال قد لا يجد بعده سبيلا للخروج منه بحال، ولقد ذكر الكثير من العلماء أكثر من مقال محذِّرين الأمَّة من خطر التَّقوُّل على الله والانتحال، ولقد عدَّ الله تعالى التَّقوُّل عليه بلا علم جُرْمًا عظيما وإثمًا جسيما، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٣]، فقد ذكر في هذه الآية تلك المُحرَّمات الأرْبَع مُرَتَّبة على سبيل التَّعالي باعتبار ما في كلِّ واحدة من التَّأذِّي والتَّعدِّي، فبدأ

بالفواحش ما ظهر منها وما بطن، ثمَّ ذكر ما هو أشدُّ منها وأفحش وهو الإثم والبغي بغير الحقّ، فذكر بعدها ما هو أعظم وأدقُّ، ثم بعد ذلك ذكر ما كان سببا وأصلا لكل تلك الموبقات والسيِّئات، فعدَّ القول على الله بلا علم من أعظم تلك الجنايات، ويتعدى ضررها إلى أعمّ المجالات نسأل الله العصمة من هذه الطامات. قال الإمام ابن القيّم رحمه الله: «وأمّا القول على الله بلا علم، فهو أشدُّ هذه المحرّمات تحريمًا، وأعظمها إثمًا، ولهذا ذُكِرَ في المرتبة الرّابعة من المحرّمات الّتي اتّفقت عليها الشّرائع والأديان، ولا تباح بحالٍ، بل لا تكون إلاّ محرّمةً، وليست كالميتة والدّم ولحم الخنزير، الّذي يباح في حالٍ دون حال»[1].

ولقد تظاهرت الشكوى من المتعالمين على مدى العصور وتظافرت الفتوى في الحجر عليهم درءا لما فيهم من الشرور وتناقلت المحتوى شتّى الصحائف والسطور ونذكر بعض ذلك ترشيدا للعقل وإثلاجا للصدور ونعوذ بالله من الحَوْرِ بعد الكور، ونسأله الخلاص يوم النشور، وهو على ذلك جدّ مشكور فإنَّ من ظواهر التعالم:

١. **التَّزيُّد في الكلام والمجاهرة بمخالفة الأعلام**: بدعوى أنه على علم بدقائق الأفهام، وسلامة فكر المتأخِّرين في موافقة نهج المتقدِّمين، قال أبو اسحاق الشاطبي رحمه الله: «قلَّ ما تقع المخالفة لعمل المتقدِّمين إلا ممَّن أدخل نفسه في أهل الاجتهاد غلطا أو مغالطة» «التعالم ص٤٢»، فليس العبرة بكثرة القيل والقال وإنَّما العبرة بما هو عليه القول من حال فرحمة الله على ابن القيم حيث قال : «كلام المتقدِّمين قليل فيه البركة، وكلام المتأخِّرين كثير قليل البركة» .

ولقد جمع الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى أقوالا نافعة وماتعة في الباب وجعلها محتوى الكتاب الموسوم بفضل علم السَّلف على علم الخلف.

٢. **التَّجرُّؤ على الفُتْيَا**: فتراهم «المتعالمين» يسارعون إلى الكلام في مسائل يتوقف فيها شيوخ الإسلام وأئمته الأعلام قال ابن القيم رحمه الله:«قلَّ من حرس على الفتيا وسابق إليها، وثابر عليها إلى قلَّ توفيقه واضطرب في أمره، وإن كان كارها لذلك غير مختار له ما وجد مندوحة عنه، وقدر أن يحيل بالأمر فيه إلى غيره، كانت المعونة له من الله أكثر والصَّلاح في فتاويه وجوابه أغلب «بدائع الفوائد (٣/٢٧٧)»، فإذا كان المتعالمون يقولون ما لا يعلمون ويهرفون بما لا يعرفون ويُسَرُّون بذلك ويفرحون، فإنَّ كثيرًا من العلماء عليهم يشفقون ومن تعالمهم يتعجَّبون بل يبكون.

ذكر أبو عمر عن مالك: أخبرني رجل أنَّه دخل على ربيعة فوجده يبكي، فقال: ما يُبكيك؟ أمصيبة دخلت عليك؟ وارتاع لبكائه، فقال: لا، ولكن أستُفْتِي من لا علم له وظهر في الإسلام أمرٌ عظيم، قال ربيعة: «ولبعض من يفتي هاهنا أحق بالحبس من السُّرَّاق»، قال بعض أهل العلم فكيف لو رأى ربيعة زماننا؟، وإقدام من لا علم عنده على الفُتْيا، وتوثُّبه عليها، ومدّ باع التَّكليف إليها، وتسلُّقه بالجهل والجرأة عليها مع قلَّة الخبرة وسوء السِّيرة وشؤم السَّريرة، وهو من بين أهل العلم مُنْكَرٌ وغريب، فليس له في معرفة الكتاب والسُّنَّة وآثارالسَّلف نصيب، وهذا الضَّرب إنَّما يُستفتَون بالشَّكل لا بالفضل، وبالمناصب لا بالأهليَّة، قد غرَّهم عكوف من لا علم عنده عليهم ومسارعة أجهل منهم إليهم، تعجُّ منهم الحقوق إلى الله عجيجًا، وتضجُّ منهم الأحكام إلى من أنزلها ضجيجًا .

فمن أقْدَم بالجُرْأة على ما ليس له بأهل من فتيا أو قضاء أو تدريس إستحقَّ اسْم الذَّمِّ ولم يحلَّ قَبُول فُتْيَاه ولا قضائه، هذا حكم دين الإسلام.

وإن رغمت أنوفٌ من أُنَاسٍ فقل يا ربِّ لا ترغم سواها

فإذا كان المتعالمون لا يتورَّعُون، ولا من الله تعالى يستحون، ولا عقابه يخشَوْنَ ويخافون، وذلك بما هم على الله يقولون ما لا يعلمون، فإنَّ غيرهم من العلماء كانوا مع علمهم يسكتون ولا ينطقون، والفتوى لبعضهم بعضا يدفعون، ولمؤنتها يكُفُّون وهم عالمون، ومن قول لا أدري لا يستنكفون، وعدم الإجابة لا يستحيون، فهذا ثعلب إمام الكوفيين ﷺ سأله سائل عن شيء فقال: لا أدري، فقال له: أتقول لا أدري وإليك تُضْرَب أكباد الإبل، وإليك الرِّحلة من كلِّ بلد ؟ فقال ثعلب: «لو كان لأمك بعدد لا أدري بعر لاستغنت»، وهذا الإمام الشعبي ﷺ، روي أنه قيل له:«إنَّا نستحي لك من كثرة ما تُسْأَلُ فتقول: «لا أدري»، فقال: «لكن ملائكة الله المؤمنين لم يستحوا إذ سئلوا عمَّا لا علم لهم به فقالوا: ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ [البقرة: ٣٢].

فإن في هذا موعظة وعبرة لهؤلاء لو كانوا يعلمون ولكن أكثرهم لا يعقلون بل لا يفقهون.

٣. ومن ظواهر التعالم «الإقدام على الكتابة العلمية»، تأليفا وتحقيقا[٢]

مع ازجاء البضاعة، وانتفاء الأمانة، وعدم الإلمام بالموضوع والإحاطة، وذلك باقتحام المرء قحما ليس من رجالها وولوج مجالات ليس من أهلها، طمعا في

نيل، سؤددها ودرتها وهو لا يستحقها، وكان متشبها بصفات لم يعطها، وكم من علوم طرقها من غير بابها وهو لا يحسن ما فيها، فأخطأها وأفسدها والساحة العلمية تعج بالمتعالمين عجيجا، وأحدثوا فيها ضجيجا، فتجد في تحقيقاتهم العجائب وفي تعليقاتهم الغرائب، وهذا عين المصائب، فإنَّ العلم «خطابةً، وكتابةً »، له رجاله ومجاله وله قواعده وأصوله، وله حماه وحدوده، وله حماته وحراسه، ولذلك تجد كل من ادعى وتظاهر بالعلم فضحته الشواهد وعرَّته وبنيانه على غير قواعد.

كل من يدعي بما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان

وكم من عالم أخذ على عاتقه مؤنة تصفية التراث مما شابه وشوهه من دسائس الدخلاء والأدعياء، المتسللين إلى رحابه، والملحقين به أضرارا كبيرة، والمحدثين فوضى عارمة في صفوف طلابه، فعاثوا فسادا وضلُّوا بعيدا و أضلوا عبادا، فرحم الله محمد بن سيرين حيث قال: «إنَّ هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم» رواه مسلم في مقدمة صحيحه.

وجهود العلماء[٣] تناولت بالنقد عبث العابثين وتدليسات المتعالمين في مصنفات كثيرة سواء في المقدمات والحواشي وعموم الموضوعات تحذيرا للمتعلِّمين ونكيرا على المتعالمين، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» متفق عليه، فهذا الحديث يدلُّ على أهميَّة العلم وعظم شأن العلماء فإن وجودهم نشر للعلم وقبضهم رفع له، فما على الطلاب إلَّا أخذ العلم من أهله وذويه والسير إليهم كل حسب مكان تواجده ولو في بلده ولقد كان السلف يضربون أكباد الإبل ويقطعون المسافات الطوال من أجل الظَّفر بفضل العلم ونيل خيره وإن العلم لا ينال براحة الجسم.

وسبحانك اللَّهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك

أصل هذه الرسالة مقال للكاتب نشر في مجلة منابر الهدى عدد ٣

السنة الثانية، محرم. صفر ١٤٢٢

(١): «مدارج السّالكين» (١/ ٣٧٢).

(٢): راجع في هذا الباب (الرقابة على التراث) ليكر بن عبد الله أبي زيد .

(٣): منهم الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدمات سلاسله الذهبية كالصحيحة والضعيفة حيث ذكر فيها الكثير من التنبيهات المبينة لخطل وزلل أولئك المقتحمين لهذا المجال من غير أهلية ولا أمانة.

خطر التعالم وضرره

لفضيلة الشيخ

عبد الغني عوسات

حفظه الله تعالى

دار المحجة

شارك في الدعوة إلى الله بنشر هذه المطوية لتكون لك حسنة جارية

www.aousat.com موقع سبيل الرشاد